١١ – اضطهاد السيد في طهران ، وإبعاده عن إيران ، وقدومه إلى البصرة

ومن حسن الحظ أن هذا الفقير كاتب هذه الأوراق كان إذ ذاك في طهران ، ينتظر قدوم السيد للتشرف به . فجاءت البشائر منبئة بمجيئه من موسكو إلى طهران . ثم وفد الشاه إلى طهران في تلك الأثناء ، وقد وصل السيد إليها بعد شهرين في سنة ١٣٠٧ ونزل في عمارة « ضراب خانه – دار ضرب المسكوكات » ومكث هنالك يومين أو ثلاثة .

وعند وصوله تشرفت بلقائه ، وأنا في كمال الشوق لزيارته ، وقبلت قدميه ، فأخذ يلاطفني ويربت علي كتفي ويقبل وجهي ، وقد أطلعنا سيادته على المعاهدات وكتب الخطاب التالي إلى ناصر الدين شاه .

« أما بعد ، فإني وفيت بعهدي وأتممت ما علي من الأمور ، وهأنذا الآن أقيم في ضراب خانه ، فقبل أن أتشرف بزيارتكم أرى أنه من الواجب تذكير جلالتكم بأن المغرضين وأصحاب المطامع وذوي الشهوات من الخونة لا يدعونكم وشأنكم ، بل يبادرون بالنميمة والدسيسة ، وأعتقد أن جلالتكم سوف لا تقدمون على الضرب على أيديهم وإيقافهم عند حدهم ، ولن تطيقوا المحافظة على العهد ، فإذا كنتم حقا مصممين على مراعاة العهد جادين في إبقائه والعمل به ، فأصدروا أمرا حتى أحظى بشرف الحضور عندكم ، وإذا لم يكن كذلك فدعوني كي أرتحل فورا من هنا قبل أن يذاع نبأ وصولي ويعلم به الناس ، وقبل أن تتكرر المأساة السابقة ويشتهر جلالة الشاه بنقض العهد . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

« جمال الدين »

وهذا جواب ناصر الدين شاه على الخطاب المذكور .

لقد سررت بمجيئكم ، وإني أقدر خدماتكم ، ولي كل الثقة وحسن الرأي في إخلاصكم ووطنيتكم ، ونحن أيضاً باقون على العهد فكونوا فى اطمئنان وثقة من جميع الوجوه وتعالوا إلى المدينة ، وانزلوا في دار الصدر الأعظم الذي أعد لوفادتكم .

فكتب السيد – للمرة الثانية – إلى الشاه قائلا :

إني شاكر لكم البقاء على العهد ، بيد أني لا أرغب في النزول بدار الصدر الأعظم لأن لي في المدينة منازل عديدة ، وسوف أنزل بدار الحاج محمد حسن أمين الضرب الذي كنت فيه في المرة السابقة ، لأني أرغب في أن أكون هناك .

فأجاب ناصر الدين شاه بقوله .

« أما وقد رغبتم في النزول في دار الحاج محمد حسن . فليكن لكم ذلك » وقدم بعد ذلك طهران ، وحل بمنزل الحاج محمد حسن . جف القلم هنا ، وها هنا بيت القصيد ! . .

وبعد أن مكث عدة أشهر في طهران وأنار بخطاباته الأذهان المستعدة ، وأوقفهم على مطالب لم يكونوا قد سمعوها من قبل ، فسرعان ما انتشرت بذور الإخاء والوحدة الإسلامية ، وحب الحرية في القلوب ، وأخذت بعض الكلمات تتسرب شيئا فشيئا إلى الأفواه بين العامة والسوقة ، وأخذ الناس يقولون إن السيد جمال الدين محق وصادق فيما يقول ، وإن الشاه رجل ظالم ، يساوم على شعبه ، مخربا للبلاد لا هم له سوى إرضاء شهواته ، والوزراء خونة لصوص همهم إرضاء الأجانب ، لا يميلون إلى تعمير البلاد وتقدم الشعب . أين بيت مال المسلمين . أين جيشنا ، أين تجارتنا ، أين ثروتنا ، أين أصلنا ، أين معارفنا ؟!.. فخاف رجال السراي مغبة الأمر ، وتأكدوا أنه لو بقي السيد شهرا آخر في طهران فقد تقوم الثورة وتنقلب أحوال الناس .

لكنهم من جهة أخرى رأوا أنهم إذا أرادوا إيذاء السيد واضطهاده ، فإنه يتحقق لدى الشعب أن الدولة دولة خائنة تؤذي وتضطهد من يريد الراحة والطمأنينة والرقي للبلاد ويدعو إلى وحدة الإسلام وإسعاد المسلمين .

فلذلك بلغت بهم القحة إلى درجة أنهم شهروا في وجه السيد راية التكفير ، وموهوا الحقيقة على الناس حتى أخذ الشيطان يعض أنامله حيرة من دسائسهم . والطريف أنهم حركوا زمر العامة ليتجمعوا هنا وهناك ويلغطوا فيما بينهم قائلين : ألا لعنة الله على البابية وأعداء الشاه .

ونتيجة لتلك الدسائس التي دبرها الهدامون للديانة النبوية والبلاد الإيرانية ، تجددت تلك المأساة السابقة ، بل زادها شدة الشاه الجبان المنخدع بأقوال المغرضين ، نظرا لعدم رغبته في تقدم المملكة وحسده للعلماء ، وإيقاعه الفتنة ما بين الوزراء والحاشية ، فكان يتخوف من كل من يراه مستعدا للخدمة ويعمل لإتلافه وإفنائه « والحق أن هذا الرجل رغم وجود ميرزا تقي خان ... كان هو السبب الوحيد المباشر لكل العيوب والمفاسد ، وهو الذي خرب البلاد فشتت العباد وأفقر الشعب » .

وقصارى القول إنه لم يتورع عن خلف الوعد ونكث العهد . فاتفق وتواطأ مع مخربي البلاد وهادمي الإسلام ، وأصغى إلى افتراءاتهم المغرضة ، لكنه تظاهر رياء بالقول بأن أكابر البلاد لا يرغبون في بقاء السيد في طهران ، فالأولى له أن يسافر لمدة وجيزة إلى خراسان أو قم ، فأجاب السيد بصراحة .

لماذا دعوني إلى إيران في المرة الثانية فقد كنت في الخارج فماذا دعاهم أن يعاهدوني ويحثوني على العودة إلى إيران .

والآن وأنا هنا أي ضرر لحق بالدولة أو بالأمة مني حتى يوجب خروجي من البلاد .

وإني منذ اليوم الذي صممت فيه على أن أخدم الوطن والعالم الإسلامي ، قد وضعت رأسي على كفي فلا أخشى أحدا أبداً . وما لم أدلل وأبرهن على خلف وعد الشاه ونقضه للعهود أمام العالم أجمع ، فإني لن أبرح الأرض ولو تعرضت حياتي للخطر المحقق ، إنني لست محكوما لأحد حتى يقال لي تعال فأحضر أو يقال اذهب فأذهب ، والمبلغ الذي عينوه لسفري له مستحقون كثيرون في إيران عامة وفي طهران خاصة .

* * *

١٢ - اضطهاد السيد وإبعاده من طهران ومجيئه إلى البصرة

وكان السيد يعلم حق العلم أنهم سيؤذونه في النهاية ، وأن بقاءه في منزل الحاج محمد حسن قد يسبب متاعب للحاج ولسائر أصحابه ، فلهذا السبب انتقل إلى مقام حضرة عبد العظيم الشريف ، وبقي سبعة أشهر في تلك البقعة المقدسة حيث كان أغلب أصحابه ومريدوه يزورونه جهارا وسرا ويستضيئون بنوره . وشيئا فشيئا ارتفعت ضجة من سكان طهران على أثر الخطب النارية التي كان يوردها السيد هنالك ، وانتهى الأمر إلى أن يوعز علي أصغر خان الصدر الأعظم بأمر من الشاه ناصر الدين إلى آقا بالا خان - الذي اغتيل أخيرا في مدينة رشت برصاصة الأحرار — بالقيام بإبعاده ونفيه خارج إيران .

وساعد مختار السلطنة حاكم بلدة عبدالعظيم الموكل إليه أمر إبعاد السيد ونفيه ، فاقتحم الجند عليه الدار وألقوا عمامته ، واقتادوه كجده العظيم من الزاوية المقدسة ، وساروا به من السوق حتى أخرجوه وساقوه إلى كرمانشاه عن طريق مدينة قم في برد الشتاء القارس ، وكانوا يغيرون حراسه في كل منزل ومرحلة خوفا من أن يتأثروا بأخلاقه الحميدة ، وملكاته الفاضلة ، ذلك لأن كل من كان يجالسه مرة أو مرتين كان يفتن بحبه وإخلاصه ويقع تحت تأثيره .

وكان حسين خان أمير أفخم شوريني قراكوزلو حاكم كرمانشاه إذ ذاك ، فأكرم وفادة السيد للغاية ، وقدم إليه مبلغا من المال ، لكن السيد اعتذر عن قبول المبلغ ، وكانت معه حوالة نقدية على أحد التجار فأخذها وأعطى مائة تومان[1] للحراس الذين كانوا برفقته ، والذين كلفوا بتسليمه إلى حاكم كرمانشاه ، إكراما لهم .

وقال لأمير أفخم إذا أردت رضاي فأزل هذه الشوكة من طريق المسلمين

---

(١) كان التومان يساوي عشرين قرشا في ذلك الوقت .

يعني الشقي (جوانمير) الذي قد عاث فسادا في قصر شيرين ، وقطع طريق زوار العتبات وتمادى في سلبهم ونهبهم وقتلهم . فرأى في المنام في تلك الليلة أن فارسا يكرر عليه قول السيد . فقويت عزيمة الأمير أفخم بذلك وسافر بعد أيام إلى قصر شيرين ، وألقى القبض على جوانمير وقتله ، ولو أن أمير أفخم صار موضعا لغضب الدولة بسبب إكرامه للسيد . ومما تجب الإشارة إليه هو أنهم عندما أرادوا إبعاد السيد من « عبدالعظيم »[٢] لم يكن في خدمته سوى معين التجار وميرزا رضا الكرماني المعروف .

أما معين التجار فقد اختفى خوفا ، وأما ميرزا محمد رضا فأخذ في الصراخ ، وهو ينادي وا شريعتاه ليثير أهالي طهران حتى يقدموا على تخليص السيد الذي كان وحيد زمانه وفريد دهره .

والخلاصة أن هؤلاء الأشرار لم يقوموا بنصرة ابن الرسول (أي السيد جمال الدين) . حدثت هذه الواقعة المؤلمة في شهر شعبان سنة ١٣٠٨ هجرية . وكنت أنا في خدمة السيد إذ ذاك بطهران ، وقد انتقم الله ممن آذى السيد بعد برهة وجيزة ، فاغتيل كل من مختار السلطنة وآقا بالاخان وميرزا علي أصغر خان الصدر أعظم واحدا بعد آخر وكان ذاك جزاء وفاقا .

* * *

(٢) اسم مزار من مزارات الشيعة بالقرب من طهران .

١٣ - سفر السيد عن طريق البصرة إلى لندن

فأبرق أصدقاؤه خبر الواقعة سرا إلى بغداد وسائر الولايات الأخرى ، ولم يدع الموظفون - حسب الأوامر - السيد يتشرف بزيارة العتبات ، وكان قد طلب إلى والي بغداد أن يوفد السيد فور وروده بغداد إلى البصرة فعمل كذلك .

ويفد السيد إلى البصرة ويقابل الحاج سيد على أكبر الشيرازي الذي كان من علماء إيران وقد أبعد منها ، ويكتب بواسطته رسالة عربية تحت عنوان « الحجة البالغة وحملة القرآن » بتاريخ سنة ١٣٠٨ هـ ، من البصرة . وقد خاطب بها المرحوم الحاج محمد حسن المجتهد الشيرازي وبقية العلماء والمجتهدين في كربلاء والنجف وسامرا ، وهي تتضمن حماية الإسلام ومحو الظلم ومقاطعة الأجانب . وطبع السيد هذه الرسالة بنفسه بعد ذلك في لندن .

وأبرقوا في هذه الأثناء إلى طهران بأن السيد جمال الدين قد غادر البصرة بغتة ولا يعرف عنه أي خبر . فأبرقت الحكومة الإيرانية إلى كل جهة بأن يقبضوا على السيد أينما وجد . لكن السيد الجليل اتجه شطر أوروبا ووصل لندن وألقى خطبا مؤثرة في مجالس الإنجليز ، يفصل فيها مظالم ناصر الدين شاه وبعض أفراد حاشيته فأثر فيهم . ومع أن السيد كان قوي البنية فإنه قد اعتل نتيجة لما قاساه من الأذى أثناء نفيه من إيران .

وكان يتذكر حتى آخر أيام حياته مأساة نفيه وما أنزلوا به من شتى الاضطهادات والاعتداءات الوحشية في غضون ذلك الشتاء القارس ، فترك ذلك في قلبه خاطرة مؤلمة .

واحتفوا بقدومه في لندن للغاية .. ذلك لأن الإنجليز فضلا عن أنهم كانوا قد أحاطوا علما بأعماله في إيران وأفغانستان ومصر والهند وأوروبا فإنهم كانوا يعرفون نواياه القلبية وغاياته المعنوية والروحية . فكانوا يؤمنون بنفوذ كلمته ،

فأحاطوه بتلك الحفاوة وذلك التكريم ليستطيعوا اجتذابه نحوهم . فبادر السفير الإيراني في لندن بتقديم مذكرة إلى الحكومة الإنجليزية تفيد أن السيد شخصية ثورية ، غير أن هذه المذكرة زادت حرمة السيد وإجلاله رغم ما كان يتوقعه السفير المذكور .

فلبث السيد في لندن مدة على هذه الحال ، واتصل به الميرزا ملكم خان سفير إيران السابق الذي كان قد أقيل من منصبه ، وأنزله في منزله مدة ، فأصدر في رجب سنة ١٣٠٩ هـ ، جريدة باسم « ضياء الخافقين » باللغتين العربية والإنجليزية نشر في عددها الثاني الرسالة التي كان قد كتبها إبان وجوده في البصرة إلى العلماء والمجتهدين ، ولكن الإنجليز عطلوا تلك الجريدة بتدابير عجيبة . فجاءه في غضون تلك الأحوال سفير تركيا في لندن يحمل خطابا من السلطان عبدالحميد يقول فيه : إننا مشتاقون لزيارتكم ، ويطلب السفر إلى الآستانة . فيستفسر السيد من السفير عن سبب هذه الدعوة ، ويجيبه السفير قائلا : إن عبدالحميد معتزم أن يؤسس بمعاونتكم ،و مساعدتكم الكريمة اتحادا بين الممالك الإسلامية ، وفضلا عن ذلك فإنه يرغب في الإفادة من آرائكم الرزينة في تدوين بعض القوانين التي هو بصددها . فيبحر السيد – طوعا أو كرها – من لندن شطر الآستانة ويصلها سنة ١٣١٠ هـ ، ويقيم بالباب العالي معززا محترما .

* * *

١٤ - وصول السيد إلى الآستانة للمرة الثانية بناء على دعوة السلطان عبدالحميد له ، ووفاته هناك

ونظرا لنفوذ السيد في الممالك الإسلامية رحب السلطان عبدالحميد بقدومه ، ورفع من منزلته السامية ، وبالغ في إعزازه وتوقيره وكان عشاء السيد وغذاؤه يعد كل يوم من المطبخ السلطاني والمائدة الملكية ، وقيل إنه قد تقرر له مرتب شهري يبلغ مائتي ليرة ، وأصبح من أقرب المقربين إلى السلطان ، وكان (مستر بلنت) الإنجليزي المعروف مقيما في الآستانة إبان ذلك وهو الذي يروي هذه الحكاية عن ضيافة سلطان تركيا للسيد في عيدي الفطر والأضحى .

وكانت صلات السيد بعبد الحميد قوية جدا في بادئ الأمر بحيث كان كل منهما يستظهر بصاحبه .

وفى إحدى اجتماعاتهما الخاصة التى جرت بينهما فقط ، خاطب السلطان السيد بقوله : إن ملتمسي من حضرتك أن تبذل غاية الجهد ، حتى نستطيع — بتوحيد آرائنا ومساعدة حضرتكم — أن ننشىء ونُؤسس اتحادا واتفاقا قويا ثابت الأركان ، لايقبل الخلل بين الشعوب الإسلامية ، حتى يمكن بفضل تلك الوحدة أن تمد أمم الجامعة الإسلامية يد المودة والإخاء ، بعضها إلى بعض ، وتنهض بالصناعة والعلوم في ظل الاستقلال القومي ، والاتحاد الإسلامى ، ولكي يحصل لها التوفيق بعون الله تعالى لاسترجاع تلك القوة العظيمة السابقة ، ولا تتأخر عن ركب السعادة والرقي .

وأراد السيد جمال الدين الذي كان من بدء حياته السياسية يعد هذا المقصود غرضه الأسمى والغاية القصوى لأمانيه الإصلاحية ، أن يواصل جهاده لتحقيق هذا الغرض ، فتقبل هذا الطلب بخالص السرور وغاية الترحيب ، وتعهد للخليفة أن يبذل قصارى جهده ، ويضحي بالروح في سبيل تحقيق هذا الهدف العظيم .

ومنذ تلك الساعة نهض بعزم حديدي وإرادة قوية كالجبل الراسخ لتنفيذ هذه المهمة العظمى .

وفضلا عما كان يمتاز به السيد من مراتب علمية وأدبية ، وفضائل أخلاقية وورع نفسي وسائر المزايا الفاضلة ، فإنه كان يمتاز بسجية الشجاعة إلى درجة تفوق كل سماته الشخصية العالية ، فلم يعرف الخوف ولا الرهبة سبيلا إلى قلبه أثناء مفاوضاته أو محادثاته .

وكان دائما يصرح بآرائه وأفكاره في غير تهيب ولا وجل لما جبل عليه من شجاعة واعتزاز بالنفس .

هذا ، فضلا عن ما كان له من رغبة ملحة في رقي وطنه وإسعاد مواطنيه .

فكانت مساعيه ومجهوداته تبذل لإنهاض العالم الإسلامي ورقيه .

وكان يكرر لمريديه وأتباعه القول بأنه يجب علينا باسم العظمة الإسلامية ، والشريعة المحمدية ، أن نحد من سيطرة الأوروبين وتطاولهم بالنسبة لأية دولة إسلامية في آسيا أو في أفريقيا أو غيرهما ، بحيث تصبح الممالك الإسلامية بعيدة عن مظالم السياسة الأوروبية واستبدادها .

وقد قضى شطرا كبيرا من عمره في الحل والترحال بالبلاد الإسلامية لترويج هذه الغاية وبثها في نفوس المسلمين . ولم يكف لحظة عن إشاعة هذا الغرض الأسمى في كل مكان . ومن أجل هذا الغرض – أي إرساء مباني الوحدة الإسلامية – حضر إلى الآستانة من لندن بناء على دعوة السلطان إياه .

وبعد عدة جلسات خاصة دارت بين السيد والسلطان في الآستانة بشأن الوحدة الإسلامية ، بادر السيد بتقسيم العمل لتحقيق هذه الفكرة الخطيرة إلى دورين .

(١) أن تكون كل المراسلات والمخابرات الدولية والرسمية مباشرة سواء أكانت مع ناصر الدين شاه أم مع خديوي مصر أم مع سلطان مراكش أم مع سائر الأمراء والإمارات الأخرى ، وأن تكون مع السلطان عبدالحميد ووزرائه وسفرائه ورجال حاشيته بأي طريقة يختارها .

(٢) وتعهد السيد بالشطر الأكثر أهمية وهو المختص بعامة الناس من الشعوب الإسلامية بأن يقوم بمكاتبة علماء المسلمين وزعمائهم سواء أكانوا من أهل الشيعة أم من أهل السنة أم من غيرهم ، وأن يبسط القضية لكافة رؤساء الأمة الإسلامية وقوادها بحيث تحظى بموافقتهم وتأييدهم .

ومما تم القول بشأنه مع عبد الحميد أن الدولة الإيرانية تفوق مصر والأفغان ومراكش وغيرها ، نظرا لتمتعها بالاستقلال التام الناجز ، فضلا عن أن الخلاف بين السنة والشيعة يرجع القسم الأعظم منه إلى أن إيران دولة شيعية ، فيجب أن يتعهد السلطان عبدالحميد بأن ينتزع من الدولة العثمانية العتبات المقدسة وجزءا آخر من النهرين (أي العراق) مما له صلة بالمشاهد المشرفة التي تزورها الشيعة ويضمها إلى إيران إزاء ما تبذله حكومة وشعبا في تأييد الوحدة الإسلامية ، كما قرر السيد أن تنتخب حكومة كل بلد إسلامي ممثلا ، ويختار كل شعب إسلامي شخصا من أكبر علمائه ليجتمعوا في الآستانة في مؤتمر عال باسم « المؤتمر الإسلامي الأعلى » ، وأن يكون له الرأي القاطع في حل المسائل والقضايا المهمة الخاصة بكل قطر إسلامي . وأن تعرف كل أمة ودولة إسلامية أنها مكلفة باحترام وإقرار ما يشير به هذا المؤتمر أو يدعو إليه .

ثم تبين بعد ذلك أن غاية السلطان عبدالحميد هي أن يفرض نفسه زعيما لهذا المؤتمر ، وأن يقرن الخلافة العامة بالخلافة الخاصة في آن واحد . وكانت هذه المسألة إحدى المسائل التي ولدت الخلاف بعد ذلك بين السيد والسلطان عبدالحميد .

وكان غرض السيد من تشكيل هذا المؤتمر الإسلامي هو إيجاد تعاون بين المسلمين لنهضتهم وتكاملهم ، واستعادة السلطان الإسلامي وعظمته .

فإن اعتدت دولة أوروبية على مملكة إسلامية ، يصدر هذا المؤتمر الإسلامي الأعلى أمرا بالجهاد المقدس لكافة المسلمين في العالم ، فينهضون لمحاربة تلك الدولة بقوة السلاح ، فضلا عن وقف العلاقات التجارية والاقتصادية معها .

وبعد أن تم الاتفاق بين السيد والسلطان على المواضيع الآنفة الذكر ، أفضى السيد بهذا الحديث إلى خواص رفاقه وأتباعه الذين كانوا جميعا من فحول الأدباء

والعلماء ومشاهير الأحرار من الشيعة ، وكان فيضي أفندي العالم الإيراني ، ورضا باشا الشيعي ، والسيد برهان الدين البلخي ، والشيخ الرئيس أبوالحسن ميرزا ، ونواب حسين الهندي ، والشيخ أحمد روحي ، والميرزا آقا خان الكرماني خبير الملك ، وعبدالكريم بك ، وحمدي بك ، والجواهر زادات الأصفهاني ، والشيخ محمود أفضل الملك روحي ، ونفر من الأحرار من مريديه في زمرة من حضروا هذا المجلس .

وقد ألقى السيد خطابا مؤثرا في هذا المعنى وأطلع الحاضرين على حقيقة أهدافه قائلا .

« الديانة الإسلامية في الوقت الحاضر هي بمثابة سفينة ربانها محمد بن عبدالله ﷺ ، وركاب تلك السفينة المقدسة كافة المسلمين خاصتهم وعامتهم .

وفي الوقت الحاضر أشرفت هذه السفينة على الغرق في بحر السياسة العالمية ، كما تعرضت لخطر الطوفان .

ولعل الحوادث الدبلوماسية ، والدسائس الدولية ، تؤدي إلى إغراق هذه السفينة وتحطيمها ، فما حيلة ركابها وهي مشرفة على الغرق وما هو تدبيرهم ؟ فهل يجب على ركاب هذه السفينة أن يبذلوا جهدهم لحراستها وإنقاذها من الطوفان والغرق ؟ أم يظلوا مختلفين فيما بينهم متبعين أغراضهم الشخصية وأهواءهم الذاتية ؟ » .

فأجاب الحاضرون : إنه يجب على كل مسلم وطني أن يبذل كل ما في وسعه لحفظ بيضة الإسلام ونجاة هذه السفينة المقدسة ، وتعهدوا جميعا أن يبذلوا كل أنواع المساعدة ، وألا يضنوا بالتضحية في سبيل تحقيق آراء السيد السامية ، وأخيرا توحدت كلمة السيد وزملائه في القيام للعمل من أجل الوحدة الإسلامية ، وكانت أفكار السيد العالية – في كل مكان – وسيلة لتهذيب المسلمين ورقيهم ، ولهذا نثر بذور الحرية في النفوس الزكية في الآستانة كما نثرها في كل مكان ، وقرر السيد الجليل أن يبسط إلى أكابر الحكام من الشيعة وزعمائهم المبادئ الأساسية مؤيدة بالدلائل القطعية والوثائق القوية في رسائل موحدة المعنى .

وفضلا عن ذلك فإنه أوعز إلى كل منهم أن يكتبوا إلى كل من يعرفونه هم أنفسهم بشأن تلك الأمور وأن يحثوهم على العمل في سبيلها ، ولهذا حرروا مايقرب من خمسمائة رسالة بألسنة مختلفة من فارسية وعربية وهندية وتركية ، وأرسلوها إلى العتبات المقدسة في العراق وإلى كافة البلاد ، فأرسلت إلى إيران والهند ومصر والجزائر وطرابلس وبلاد الشام والحجاز وسائر الأقاليم الإسلامية ، وعزم السيد على أن يوفد ستة أشخاص من رفقائه وأتباعه الذين يتكلمون اللغات الشرقية إلى الأقطار المعنية بالأمر لبث الدعوة فيها .

ولم تمض مدة حتى وصلت الردود الطيبة على كل تلك الرسائل من قبل كافة الطبقات في المجتمع الإسلامي ، سواء أكانوا من العلماء أم من غيرهم ، وتقبلوا الدعوة بقبول حسن وسرور بالغ ، وقد أرسل بعضهم هدايا وتحفا تاريخية بواسطة فيلسوف الإسلام الأعظم السيد جمال الدين إلى السلطان عبدالحميد ، وكان بعضهم قد ألحق برسالته أدعية وتعويذات للسلطان العثماني ، فأمر السيد بأن تترجم كل تلك المراسلات من الألسنة المختلفة إلى اللغة التركية ، وأن يرفق أصل كل منها بترجمته ، وحملها إلى حضرة السلطان عبدالحميد ، هذا وقد سر السيد سرورا بالغا بنجاحه في خدمة الإسلام .

وقرأ السلطان عبدالحميد كل تلك الرسائل في دقة ، وازداد سروره ، فاحتضن السيد دون تكلف ، وقبل محياه مرات عديدة ، وهنأه على ما حصل من التوفيق على يديه ، واستولت عليه الحيرة والعجب من نفوذ كلمة السيد ونفاذ أمره في هذا الأمر الخطير ، فقال السيد : الآن وقد وفقنا بعون الله ومساعدة حضرتكم في الحصول على الشطر الأعظم من مقصودنا ، يجب علينا أن نبدأ المرحلة الثانية أي دور التنفيذ ، وحيث إن حاشيتي من الوزراء متعصبون لمذهب السنة ومن المحتمل أن يدبروا الدسائس لعرقلة الموضوع ، ويتهموني بالتشيع فيتأخر تنفيذ الأمر نتيجة لذلك ، أرى أن من الصحة تحويل هذا الغرض المهم من الباب العالي إلى الصدارة العظمى وأن تجعل شيخ الإسلام في السر متحدا ومتفقا معك في هذا الشأن .

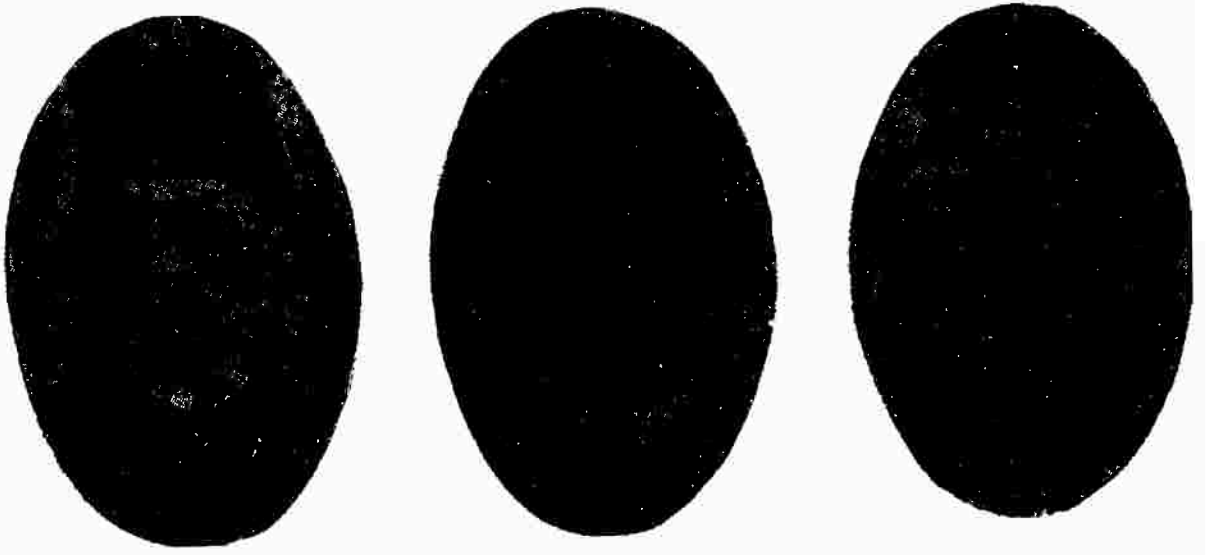

الشيخ أحمد روحي الكرماني　　ميرزا آقا خان الكرماني　　ميرزا حسن خان خبير الملك

ثلاثة من قادة الفكر في إيران التجأوا إلى تركيا في عهد السلطان عبد الحميد ، وكانوا من أخص أصدقاء جمال الدين ، وقد استدعوا إلى تبريز بحيلة وقتلوا هناك بتدبير من الحكومة الإيرانية

فقبل السيد ، ثم إنه بعد أن أودعت الإجراءات الخاصة بالاتحاد الإسلامي إلى شيخ الإسلام ، والصدر الأعظم – حسب ما ارتآه عبدالحميد – أسدل الستار نهائيا على موضوع الاتحاد الإسلامي بسبب الخلافات التي نشأت في الرأي بين السيد والسلطان عبدالحميد ، وفي خلال هذه الأحوال وقعت نسخة من الخطابات التي كانت بإمضاء السيد وأصحابه ، بشأن الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي والتي كانت موجهة إلى أحد العلماء الأجلاء في العتبات المقدسة ، في يد محمود خان قنصل إيران في بغداد ، فأرسل ميرزا محمود خان تلك الرسالة مشفوعة بمبالغات كبيرة وتأويلات منمقة إلى الشاه ناصر الدين بطهران يقول فيها : إن السيد جمال الدين قد اتفق مع بعض الإيرانيين على تسليم المملكة الإيرانية إلى السلطان العثماني ، وأخفى غرضه خلف ستار الوحدة الإسلامية ، وقد ضم أغلب العلماء إلى صفه . وفضلا عن ذلك ، فإن رسائل الشيخ أحمد روحي ، والميرزا آقا خان الكرماني التي كانت ترسل من الآستانة إلى أمين الدولة ومعاون الدولة وغيرهما بشأن الدعوة إلى الحرية والتي أطلع ناصر الدين شاه علىٰ أغلبها قد أيدت ادعاءات قنصل بغداد .

وبعدما فرغ ناصر الدين شاه من قراءة هذا التقرير ، اعترته رهبة بالغة فأبرق من فوره إلى الميرزا محمود خان علاء الملك سفيره في الآستانة يقول : إن كل الأشخاص الذين يشاركون السيد جمال الدين في موضوع الاتحاد الإسلامي ، وهم من رعايا إيران يجب أن توجهوا لهم تهما سياسية ، وأن ترسلوهم مخفورين إلى إيران ، ونظرا للكراهية والحقد اللذين كان يحملهما علاء الملك للحاج الميرزا حسن خان خبير الملك القنصل العام للسفارة الإيرانية في الآستانة ، إلى جانب عدم اكتراث ميرزا آقا خان والشيخ أحمد روحي بشأنه ، اعتمادا على السيد جمال الدين لكونهما – من خواص أتباعه – لهذا كله كان علاء الملك ، يتحين الفرص للإيقاع بهم .

وبعد وصول برقية الشاه ناصر الدين رأى أن الوقت مناسب للانتقام ، فأحكم المؤامرة مع محمود باشا مدير الشرطة في الآستانة ، ومناه بوعود كاذبة قائلا : إني سأطلب لك أعظم وسام في الدولة الإيرانية ، كما سأسلم لكم رعايا تركيا الذين فروا إلى إيران ، أو من يفرون بعد ذلك بشرط أن تسلموا هؤلاء

الثلاثة من الإيرانيين ، لأنهم من المنكرين لأساس الملكية ، ومن الملتفين حول السيد جمال الدين ، والمحتمين بالسلطان عبد الحميد لثقته العمياء بالسيد ، وأرجو أن ترسلوهم إلى السفارة الإيرانية .

فوافق محمود باشا دون روية على هذا الكلام المغرض ، ورفع تقريرا مفصلا في هذا الشأن إلى السلطان عبدالحميد ، فسر السلطان عبدالحميد سرورا بالغا من تسليم الفارين إلى الدولة التركية ، وأصدر أمرا يفيد بأن اختيار الرعايا الإيرانيين موكل إلى سفيرهم ، وذلك دون علمه بصلة الأشخاص المذكورين بالسيد جمال الدين .

وفي هذه الأثناء اصطدمت آراء السيد الثاقبة بالأهواء الشخصية لرجال الدولة وأفراد الحاشية ، كما ثارت ثائرة البغض والحسد في نفس شيخ الإسلام ، بتأثير وشايات أبي الهدى نديم السلطان ، كما قلل السيد من زيارة السلطان ، وكان خديوي مصر قد حضر إلى الآستانة إذ ذاك ، وكان متشوقا لزيارة السيد جمال الدين للغاية ، وكان كلما استأذن من الباب العالي في مقابلة السيد لا يجيبه إلى طلبه .

فتجرأ خديو مصر يوما وأسرع إلى مقابلة السيد في منطقة (كاغذخانه) أحد متنزهات الآستانة بعيدا عن الأنظار ، وحظي بلقائه مرة أخرى ، فأنهى الشرطة والجواسيس إلى عبدالحميد أمر تلك المقابلات ، فتوجس عبدالحميد خيفة من ذلك ، وخشي أن يتم اتفاق بين السيد والخديوي – نظرا للظروف في تلك الأيام في الآستانة ، ووجود حزب تركيا الفتاة وخاف أن يتقرر خلعه وتنصيب الخديو بدلا منه ، كما أن السيد عبدالله والي المدينة المنورة – الذي كانت له منزلة خطيرة ، وكان معرضا لكراهية رشاد بك ولي العهد العثماني – كان قد لجأ إلى منزل جمال الدين ، وكانوا كلما سعوا إلى تسلمه يواجهون رفض السيد ومبالغته في المحافظة عليه ، إلى أن سلمه إلى خديو مصر حينما عزم على الرحيل إلى القاهرة فاصطحبه معه . وفي غضون هذه الأحوال انتهز أعضاء حزب تركيا الفتاة الفرصة للمطالبة بالحكم النيابي .

ودعت هذه المسألة – نظرا لنفوذ السيد البالغ – إلى تخصيص ما يزيد على ثلاثة عشر ألفا من رجال الشرطة السريين لمراقبة الشخصيات البارزة من الأجانب والمواطنين . وشددوا في المراقبة بحيث لم يستطع أي إنسان الاتصال بأشخاص معينين .

ووكلوا إلى عشرة من الجواسيس تتبع حركات السيد جمال الدين ، بصورة خاصة ، وراقبوا أصدقاءه ورفقاءه وأتباعه مراقبة شديدة ، فصارت هذه الأوضاع ، وأنانية حاشية الباب العالي ، ووجود النفعيين باعثا على أن ينقلب الصفاء إلى جفاء بين السيد وعبدالحميد .

فأفاد علاء الملك سفير إيران من الوضع الراهن ، وسعى إلى القبض على أولئك الأبرياء وإيفادهم إلى ساحة الاستشهاد ، وأدى توتر الصلات بين السيد والسلطان إلى التمكين لعلاء الملك سفير إيران فعمل على القبض على الشيخ أحمد والميرزا آقا خان الكرماني وخبير الملك ، حتى حصل بمساعدة الحاشية في الآستانة على أمر من الدولة التركية بتسليم الثلاثة المذكورين آنفا حسب ما يرتئيه سفير إيران ، فحملوهم إلى الحدود تحت الحراسة وسلموهم إلى موظفي الدولة الإيرانية .

جمال الدين في مصر

وتقول المصادر الوثيقة إنه في صباح ١٢ من شهر رجب من سنة ١٣١٣ هـ ، دخل ضابط برتبة (رائد) مع نفر من الشرطة إلى منزل الشيخ روحي والميرزا آقا خان ، وساقوهما قسرا إلى دائرة الشرطة بعدما صادروا كل ما عندهما من رسائل وأوراق ، كما قبضوا على خبير الملك بعد ذلك مباشرة فاتصل الشيخ محمود أفضل الملك الأخ الأصغر للشيخ روحي من فوره بعلاء الملك السفير للإفراج عنهم فلم يحصل على نتيجة .

وأبعد الشيخ أحمد روحي الذي كان من أجلة علماء كرمان مع الميرزا آقاخان الكرماني وخبير الملك وجماعة من أحرار تركيا من الآستانة في سفينة حسين باشا التي كانت من السفن الخاصة بالدولة .

ثم بعثوا الأتراك إلى أماكن مختلفة وأودعوا هؤلاء الإيرانيين الثلاثة سجن (طرابزون) .

فتوجه أخو روحي – بعد يأسه من السفير – مع أولاد الجواهري الأصفهاني إلى منزل السيد جمال الدين مباشرة ورجوه أن يذهب بشخصه إلى عبد الحميد ويطلب منه إطلاق سراحهم .

فأجاب السيد : رغم تطور العلاقات بيني وبين عبدالحميد الآن وكراهيتي لمقابلته فإني قد قابلته فور سماعي هذا الخبر وقلت له : إن هؤلاء الأشخاص لم يرتكبوا إثما سوى مشاركتهم إياي في آرائي بشأن الاتحاد الإسلامي .

فأبدى عبدالحميد أسفه للقبض عليهم وأقسم قائلا : إن نفيهم من الآستانة لم يكن بعلمي . وكل ما هنالك أن مدير البوليس ناظم باشا أرسل إليّ تقريرا يقول فيه : إن شخصين أو ثلاثة من الإيرانيين أخذوا يعيثون فسادا في الآستانة وقد اشتكى منهم سفير إيران ، فمن المستحسن أن تصدر الإدارة السنية أمرا بالقبض عليهم فأصدرت الأمر باعتقالهم دون التثبت من القضية ، وسأبرق الآن إلى (طرابزون) ليعيدوهم مكرمين .

وفي التو ، كتب السلطان بخط يده ، برقية وسلمها إلى الحاج علي رئيس الخدم الخاص ليرسلها ، فاطمأن قلب الشيخ أفضل الملك بكلام السيد جمال الدين

وتيقن من عودتهم إلى الآستانة في أقرب وقت ، وفي هذه الأثناء علم سفير إيران بما دار بين السيد وعبدالحميد للإفراج عن هؤلاء ، فأسرع إلى مقابلة السلطان ورجاه قائلا : لو عاد هؤلاء بهذه السرعة فإن هذا سيكون باعثا للحط من كرامتي أمام الرعايا الإيرانيين فأرجو أن تؤخروا عودتهم .

وكان الحاج سيد عبد المهدي ، وناظم باشا مدير الشرطة اللذان – كانا من أصدقاء السفير – يعملان معه دائما على تأخير عودة هؤلاء ، فظلوا يسعون حتى أصدر عبدالحميد أمرا ناسخا للبرقية الأولى .

وعلى كل فقد طال الأمد على اعتقال الشيخ روحي والميرزا آقاخان وخبير الملك في سجن طرابزون .

وسعى بعض الأشخاص وبعض السفراء الأوروبيين الذين كانوا قد تتلمذوا على الشيخ روحي سعيا حثيثا للإفراج عنهم ولكن دون جدوى .

وجدد أخو روحي توسله إلى السيد فأجاب السيد بعد قليل من التفكير بكل هدوء ورزانة قائلا : لو فرضنا أنهم ساقوا ابني لقتله وكانت نجاته بكلمة واحدة مني لفضلت قتله على ذل التوسل إلى عبدالحميد .

دعهم يذهبوا بهم إلى إيران ويقتلوهم حتى يحصل لأسرتهم الفخر والشرف .

وأخيرا جرى الأمر كما قال السيد ونقلوا من طرابزون ، وسلموا عند الحدود إلى جند غلاظ شداد من موظفي إيران .

وساقوهم – من هناك – رأسا إلى تبريز فسجنوا في دار محمد علي ميرزا ولي العهد في ششكلان ، ورفعوهم إلى درجة الشهادة بعد أنواع من القسوة الوحشية والتعذيب الأليم تقشعر من سماعها قلوب القساة من الناس .

وألف ميرزا آقا خان الكرماني كتابا في تاريخ إيران أيام سجن شهداء إيران الثلاثة الأحرار ، يعرف بنامه باستان .

وقد أخطر ميرزا رضا الكرماني – الذي كان من المفتونين بحب جمال الدين – ناصر الدين شاه وحاشيته أنه سوف يقتل الشاه بسبب إبعادهم السيد

جمال الدين بهذه الصورة المزرية باحترامه ، وكان ذلك بعد إبعاد السيد من طهران وإيران ، وكرر إخطاره هذا بالقلم واللسان .

وكان بعض المحبين للسيد وممن قد خبروا نوايا ميرزا رضا قد أبلغوا – إتماما للحجة – ناصر الدين شاه نفسه والميرزا علي أصغر خان الصدر الأعظم وعددا من علماء طهران بذلك قائلين : « إن ميرزا رضا له هذه النية فإن أقدم على أمر خطير كهذا فلا ذنب على السيد ، ولا على أصدقائه ، فإما أن تسجنوه ، وإما أن تنفوه » ولذلك سجنوا ميرزا رضا مرارا بسبب أقواله وضيقوا عليه في سجون الدولة حتى أدى به الحال إلى أن يبقر بطنه بالمقص في (دار كامران ميرزا) لطول ما لبث في السجون وما لقي من تعذيب ، وعلم الشاه بما حدث فأرسل جراحا لمعالجته ، هذا فضلا عن أنهم حرقوا كل جسده في سجن قزوين .

وضربه آقا بالا خان سردار يوما بالعصى على قدمه إلى درجة أن بتر اصبعين منها فذاق واحتمل كل هذه العقوبات والتعذيبات من آقا بالاخان وسائر الحاشية حتى آل الأمر – كما قال – إلى أن كل من كان يريد أن يصير حاكما أو قائداً كان يربطه ويضربه بالعصا .

ولم تقلل كل هذه المشاق من عشقه للسيد بل كان حبه له يزداد يوما بعد يوم كما يزداد نقده لمبغضيه . وفي النهاية نجا من الحبس الذي أصابه نتيجة لتهوره وعدم مبالاته في الكلام .

واعتزم السفر إلى الآستانة لينهل من نمير فيض فيلسوف الشرق العظيم أستاذ المؤرخين وفخر المسلمين حضرة السيد جمال الدين طاب رمسه الشريف في حين أنه لم يكن في يده شيء من حطام الدنيا إلا التوكل على الله ، وكانت له في (رشت) معرفة بأحد التجار الذي كان يعرفه حين كان هذا التاجر يعمل لدي الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فاستدان من هذا التاجر عشرين تومانا[1] ، لنفقات السفر على أن يرسل إليه بدلها عطرا حينما يصل إلى الآستانة .

وكان الحاج أمين الضرب قد أرسل إلى ميرزا علي خان أمين الدولة المدير

---

(١) كانت تساوي أربعة جنيهات في ذلك الوقت .

العام للبريد في إيران – الذي كان من مريدي السيد – أربعين تومانا ليحولها إلى رئيس البريد في (رشت) ليعطيها إلي ميرزا رضا ، فاستلم ميرزا رضا ذلك المبلغ ولم يقبل نقود التاجر ، وردها إليه واتجه رأسا إلى الآستانة كعبته المقصودة ، ووفد إلى منزل السيد الذي كان حينذاك فى الآستانة ، وكان ضيفا على عبد الحميد ، وطلب مقابلته فأبلغ الخدم السيد بأن إيرانيا مريضا مسكينا بهذا الاسم يطلب التشرف بمقابلته .

وفي أثناء المدة التي مكثها السيد في الآستانة كان يلتف حوله أكثر الوقت الخواص من أصحابه وأصدقائه الحميمين ، بينهم بعض العلماء وقادة التحرير من الهنود والمصريين والجزائريين ، ونخبة مختارة من الإيرانيين من أمثال ميرزا آقاخان الكرماني والشيخ أحمد روحي وميرزا حبيب الأصفهاني وطاهر مدير جريدة (اختر) وميرزا حسنخان خبير الملك القنصيل العام بالسفارة الإيرانية .

فأجاب السيد الخادم : كان هذا الشخص (ميرزا رضا) مضيفا لي حينما كنت في طهران بمنزل أمين الضرب فقد عينه صاحب المنزل ليكون مضيفا لي ، وأعرفه جيدا ولكني مع الأسف قد اطلعت على سفالة طبع الإيرانيين وسخافة فكرهم فلا رغبة لي في مقابلته . فربما يكون هذا الشخص مثل بعض الإيرانيين الذين يريدون مقابلتي في حماسة وحرارة ثم يتبين أنهم من جواسيس الباب العالي أو السفارة الإيرانية .

ولكن بعض الحاضرين ممن كانوا مطلعين على سوابق أخلاق ميرزا رضا قالوا : إن هذا الرجل يمكن الثقة بأخلاقه وأفعاله دون شك ، فضلا عن أنه محتاج إلى المعالجة نتيجة لما جرى عليه من التعذيب في سفن طهران وقزوين ، فأمر السيد أن يؤخذ لمعالجته في المستشفى الفرنسي دون أن يأذن له بالدخول عليه .

واستمر علاجه أربعين يوما . وأدى السيد عن كل يوم ليرة لنفقات علاجه .

وفي أثناء وجوده بالمستشفى كان أصحاب السيد يعودونه كل يوم حتى تم شفاؤه .

وفي أول مقابلة خاصة لميرزا رضا مع السيد افتتح الكلام بقوله : في

الأوقات التي كنت فيها فخورا بخدمتك في طهران كانت تجذبني كلماتك السامية وتأثيرك النفاذ وأحاديثكم المؤثرة . ولم أحتمل كل تلك المظالم والقسوة التي صبها رجالات البلاط على الناس . فصرت أفكر كثيرا في أمر اقتلاع بنيان الظلم .

وصارت انتقاداتي لحكومة إيران ورجال الحاشية باعثا على حبسي وتعذيبي كل يوم بأنواع من العذاب ثم حدث ، أن ضربني آقاخان بالعصا على قدمي حتى سقط إصبعان من أصابع القدم كما كووا كل مواضع جسمي في سجن قزوين . وضقت ذرعا بالظلم الذي أصابني في دار (كاميران ميرزا) فبقرت بطني بالمقص .

وشرح كل ما أصابه من متاعب ومشاق على هذا المنوال في حضرة السيد ، ولم يتمالك نفسه فأجهش بالبكاء .

وكان السيد حتى تلك اللحظة ينصت إلى حديثه بهدوء ورزانة ، فلما رأى ميرزا رضا يبكي أخذه الغضب وقال له .

إن لبكاء شعار العجائز من النساء . مادام باب الموت مفتوحا أمام المرء فينبغي ألا يرضخ للظلم والهوان .

وكانت هذه العبارة السامية . أشد وقعا من الصاعقة السماوية على ميرزا رضا ، فأثرت فيه أيما تأثير ، وعزم لتوه على أن يدفع الظلم عن نفسه فأقام مدة في الآستانة معتكفا بمنزل ميرزا آقاخان والشيخ أحمد ، وكان يحضر يوميا مجلس السيد وصحبه .

وحسب ما يقال إنه في جلسة كان يحضرها روحي وميرزا آقاخان أراد ميرزا رضا أن يتفاءل بالقرآن الكريم تقوية لعزيمته الحديدية فرفع المصحف إليه ، وفتحه فجاءت الآية الشريفة التي كانت بمثابة الإعجاز في هذا الباب في أول الصفحة فتلاها الميرزا وهي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾[1] .

فسر ميرزا رضا سرورا بالغا من حسن هذا الفأل .

---

(١) سورة القصص آية : ١٥ .

وفي بعض الأوقات حينما كان روحي وميرزا آقاخان يبقيان وحدهما في المنزل ويتحدثان في أوضاع إيران المؤسفة كان ميرزا رضا يقول لهما في عزم وتصميم : يجب اجتثاث الشجرة الكبيرة من جذورها حتى تجف هذه الفروع والأوراق وما يتبعها بطبيعة الحال .

وبعد سفر ميرزا رضا من إيران أبلغت وزارة الخارجية سفير إيران وقناصلها في تركيا ألا يزودوه بجواز سفر للعودة إلى إيران إذا أراد العودة إليها .

ولهذا السبب تأخرت عودته مدة من الزمن حتى بعث الشيخ أحمد روحي أخاه الأصغر الشيخ أبا القاسم إلى إيران وانضم إليه ميرزا رضا بصفته خادما له .

ويجب ألا يفوتنا ذكر هذه النقطة وهي أن جميع نفقات ميرزا رضا طول مدة إقامته في الآستانة وسفره منها إلى إيران كان يتحملها السيد نفسه .

وصحب الميرزا الشيخ أبا القاسم حتى أرض القوقاز ، ومن هناك عزم الشيخ أبوالقاسم على التوجه إلى خراسان وكرمان عن طريق (عشق آباد) وأوصل ميرزا رضا نفسه بطرق صعبة ذللها له الله إلى (مشهد سر) .

وعلى حسب ما سمعناه أنه اشترى في (مشهد سر) – من فاكهى – مسدسا قديما وخمس رصاصات بثلاثة تومانات ، وانطلق رأسا إلى طهران ، ومكث مدة في حضرة عبدالعظيم بالري في زاوية بالدور العلوي ، ولم يختلط بأحد خلافا لسابق عادته .

وكان يترقب الفرصة حتى حل اليوم السابع عشر المبارك من شهر ذي القعدة الحرام من عام ١٣١٣ هـ ، وكانوا قد زينوا مدينة طهران ابتهاجا بمرور خمسين عاما على حكم ناصر الدين شاه الجائر .

وبادر المتملقون من كل طبقة إلى المساهمة في الحفل ، ولكن القضاء والقدر لم يمهل ، حيث إن المشيئة الإلهية كانت قد قضت بهذا الأمر و « إذا جاء القدر عمي البصر » فقام ميرزا رضا بعمله وتم قتل الشاه على يده ، وتشرف ناصر الدين شاه عصر اليوم السابع عشر من شهر ذي القعدة عام ١٣١٣ هـ ، بزيارة حضرة عبدالعظيم وإذا بمسدس ميرزا رضا المسكين يدوي ويضرب الشاه ويقتله في بقعة

حضرة عبد العظيم المقدسة التي أخرجوا منها السيد قبل ذلك وبعد القبض عليه أقر بصراحة بالغة دون خوف أو وجل .

وأما ما يقولونه من أن هذه الواقعة قد تمت بإذن من السيد فأنا أكذبه لأن كل ما اتصل بعلمي أن السيد لم يكن يرغب في هذا العمل ، كما أن وقوع هذه الحادثة قضت على أكثر خطط السيد ، والسر الذي دعا ميرزا رضا إلى ارتكاب ذلك الأمر هو أنه لم يطق أن يرى إبعاد السيد بتلك الإهانة والقسوة مع فرط عشقه وحبه له . فلذلك أبدى عشقه الحقيقي للعيان ، وأما يقال عن دس السم للسيد فهو صحيح لا شك فيه .

وبعد جلوس مظفر الدين شاه على عرش الملك تبين أن السيد جمال الدين إيراني أسد آبادي ، فاستفسر عن حاله ميرزا علي أصغر خان – الصدر الأعظم تنفيذا للأمر – من « خان بابا خان صاحب اختيار » الذي كان في ذلك الوقت حاكما على أسد آباد ، ومن علماء البلدة وسادتها فكتب الحاكم وسراة البلدة معلوماتهم عن السيد مع توقيعاتهم وأرسلوها وكان ما قد جرى مصداقا لقوله تعالى : « لعنة الله على الظالمين » .

وبعد قتل ناصر الدين شاه حبسوا عمي ميرزا شريفخان بجريرة كونه ابن أخت السيد ، في سجن الدولة بطهران .

وكان والدي ميرزا لطف الله كاتبا عند « أمير أفخم زين العابدين خان » الذي كان حاكما على كرمانشاه في ذلك الوقت .

وأبرقوا إلى أمير أفخم لجلبه إلى العاصمة ، فأبدى أمير أفخم شهامة ورجولة ، ولم يسلمه لهم فتوارى والدي مدة عن الأنظار في جبال (لرستان) و (بشت كوه) حتى نهبوا دارنا في أسد آباد بأمر من حاكمها خان بابا خان ، فضاعت أكثر كتابات السيد .

صفات الله

وأخيرا تمسكت الحكومة الإيرانية بهذه الوثيقة ، وأرسلت إلى سفيرها علاء الملك في الآستانة ليثبت أن السيد جمال الدين إيراني ويطلب تسليمه رسميا من الدولة التركية .

ورغم أن السيد كان تحت المراقبة لتخوف عبدالحميد من نفوذ كلمته وتوتر الصلات بينهما . إلا أن السلطان عبدالحميد تظاهر بعدم رغبته في تسليم السيد خوفا من لوم الناس .

ولبث السيد في هذه المرة أربعة أعوام في الآستانة حتى أوفدت الحكومة الإيرانية ناصر الملك لقتل ذلك السيد السعيد والحكيم الوحيد أو إحضاره إلى إيران .

فلما رفضت الدولة العثمانية تسليم السيد اتفق سفير إيران ومندوبها فوق العادة الذي كان قد أوفد من إيران لهذه الغاية في سنة ١٣١٤ هـ على أن يسموا ذلك السيد المظلوم الغريب الوحيد – مثل أجداده العظام – وقد حدث ذلك ، واستشهد جمال الدين .

وتحقق هذا الشعر العربي الذي كان يتلوه السيد قبل ذلك وقد كتبه بخطه وزين به عنوان إحدى مقالاته فكان شاهدا ودليلا على ما وقع . أجل (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) .

وهذا هو الشعر .

أنا المسموم ما عندي بترياق ولا واق
أدر كأسا وناولها ألا يا أيها الساقي

وقد تبين أنه فاز بمرتبة الشهادة في شهر شوال من تلك السنة ، وأودعوا جثمانه بالتجلة والتكريم في مقبرة « شيخلر مزار لقى » بالقرب من منزله .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

كل من بقي حيا بحسن السمعة فهو حي خالد . لأن اسمه يبقى حيا ، بالذكر الطيب الذي يتركه من بعده .

ميرزا لطف الله الأسد أبادي[1]
ابن أخت السيد

---

(١) وهذا نص البيت الفارسي :

زنده جاويد ماند هركه نكونام زيست
كز عقبش ذكر خير زنده كند نام را

خـاتمـة

اقتبس المرحوم ميرزا لطف الله جزءا من عبارات هذه الخاتمة من جريدة كاوه[1] .

المعلم الأول للحرية ، فيلسوف الإسلام الأعظم ، الخبير بسياسات الدنيا ، العالم بمقتضيات العصر ، المحرر الأول لآسيا ، الموقظ لشعور الحرية في المسلمين ، رائد الأحرار ، حامي حمى الإسلام وناصر الدين المبين ، الحريص على خير المسلمين .

ذلك هو السيد جمال الدين الأسد آبادي عطر الله مرقده . فهو العبقري العظيم الغني عن الألقاب ، والمؤيد من عند الله ، وكان من غير شك أحد العباقرة والمتصفين بعالي الصفات وخوارق العادات .

وقد وصل إلى المراتب السامية بصفاء ذهنه ، وحدة ذكائه ومواهبه الخارقة ، وسرعان ما تبحر في العلوم الإسلامية وهو لا يزال شابا .

وأودع أكثر العلوم في صدره ، وعرف لغات كثيرة ، وكانت له اليد الطولى في علم التاريخ والفلك بوجه خاص . وصار في عصره منبع نهضة خطيرة في الممالك الإسلامية ، فاشتغل بالسياسة ، وخدمة الإسلام في لندن وباريس وروسيا وسائر الممالك الأوروبية ، وعمل في الهند ومصر والآستانة وبلاد الأفغان ، وتحمل عناء كبيرا من أجل نهضة الإسلام والمسلمين وحضارتهم .

---

(١) كاوه كانت جريدة يصدرها الأستاذ العلامة تقي زاده – رئيس مجلس الشيوخ الإيراني حينذاك – في برلين ، وكانت باللغة الفارسية ولها أهمية كبيرة لمحتوياتها العلمية والاجتماعية العميقة .

وكانت له شخصية قوية ونفس مطمئنة ، وروح عالية ، وتأثير بالغ ، ونفوذ قوي ، وكانت لعينيه قوة ساحرة .

وأكبر صفاته الممتازة قدرته الخطابية التي كانت تضارع نفسه الجياشة بالعواطف ، الملتهبة بالإيمان .

وكانت نظرته تنفذ إلى أعماق قلب مخاطبه إبان محادثاته ومفاوضاته ، كما كان دائما يفحم محدثه بقوة بيانه وبلاغته .

وكانت كتابته بالعربية بدرجة من الكمال لا يمكن تصورها . فمقالاته كانت تعيد إلى الأذهان خطب صدر الإسلام . كما أن مقالاته الفارسية كانت لطيفة وتسترعي الاهتمام .

وكانت أعظم أمانيه وأهدافه أن تتحقق الوحدة الإسلامية ، ونهضة الإسلام عن طريق الأخذ بالحضارة الإسلامية ، وتجديد عظمة الإسلام وتحرره من سلطان الأوروبيين وكان يقول الحق صريحا أينما وجد دون مواربة أو تردد .

وكان يبدي حماسا وتعلقا بالغين بالإسلام . وعلى حد قول أغلب علماء أوروبا فإن هذا العالم الرباني والفيلسوف الخطير كانت ترتعد – من قوة بيانه وقدرة بنانه – فرائص الملوك على عروشها دون أن يكون له مال أو جيش .

كما أنه استطاع بفضل إحاطته بالأوضاع والأحوال الاجتماعية والسياسية أن يقضي على الخطط الخطيرة التي كانت قد رسمتها الدول الأوربية إذ ذاك .

واستعمل قوى غريبة لم يلتفت إلى أهميتها والإفادة منها سياسيو الغرب والشرق ، كما كان هو العامل الوحيد في تأسيس النهضة الإسلامية والحزب الوطني في مصر .

وكان يعمل على إرشاد المسلمين وهدايتهم إلى طريق السعادة بالعلم الصحيح ، والعمل الصالح أينما حل ونزل ، وذلك بفضل جاذبيته وسمو أخلاقه . ونثر بذور الحرية والمعرفة في قلوب الأحرار . كما أنه غرس – بوجه خاص – أشجار الحرية في مصر والبلاد العثمانية وإيران والهند وأفغانستان .

وكان لفرط تعلقه بالعالم الإسلامي يخدم المسلمين ويؤدي لهم كل ما هم في حاجة إليه من نصح وتضحية ، دون النظر إلى جنسياتهم أو لغاتهم أو مذاهبهم .

وحقا إن تلك الشخصية المباركة كانت هي المرسية لقواعد الحرية ، وقد ضحى آخر الأمر بنفسه في سبيل رقي الإسلام وتقدمه . ويردد المسلمون الآن في كل بقاع العالم اسم ذلك العلامة الفهامة ، وفيلسوف الإسلام الوحيد بالتقديس والتعظيم ، ويعمل الأحرار في مصر لإقامة تمثال له ويقرنون اسمه المبارك في معاهدهم ومجالسهم ونواديهم بلقب الأستاذية والتعظيم والتكريم ، لأن أعظم آثاره كانت في مصر .

وكان محمد عبده مفتي مصر الأعظم مسترشدا به ، كما كان من تلاميذه ومريديه وأصحابه المهدي السوداني ، وأديب إسحاق وعرابي باشا وجمهور المثقفين في مصر ، وكان أصحابه ومريدوه يعشقونه ويعظمونه لدرجة كبيرة .

ومن آثاره الخالدة تاريخ الأفغان ورسالته باللغة الفارسية في الرد على الدهرية باسم الـ « نيجريه » و (المقالات الجمالية) و (الطفل الرضيع) و « الحجة البالغة » ورسالة في حقيقة الأشياء ، وكيفية استشهاد حضرة الإمام الحسين بن علي سيد الشهداء وثمانية عشر عددا من مجلة العروة الوثقى . ولم يهتم بأمر الدنيا ولم يتزوج وكانت حياته بسيطة جدا .

ولم يكن يملك سوى اثني عشر صندوقا كبيرا من الكتب كانت مودعة في منزل الحاج محمد حسن أمين الضرب ، فتسلمتها منه وختمتها ، كما لم يكن يملك من حطام الدنيا سوى حلتين ، وكان يكرر قوله بأني قد أسرفت في اقتناء السراويل والأقمصة (وربما كان يملك أكثر من حلتين) .

وكان يرتدي – دائما – الملابس الفاخرة ، وكان يلبس الملابس الأفغانية في بلاد الأفغان والهند ومصر وأوروبا وكان يلف حول قلنسوته قماشا أبيض دليلا على شرفه ، وكان يرتدي ملابس العلماء العثمانيين في الحجاز والآستانة .

ورغم أنه قضى شطرا كبيرا من عمره في أوروبا فإنه لم يأخذ بعادات أوروبا وتقاليدها ، وكان حلو الشمائل وقورا بدينا قوي الجسم قمحي اللون كعرب الحجاز ، وكانت عيناه الواسعتان تنبعث منهما الجاذبية والسحر ، وكان قليل الطعام يتناول وجبة واحدة في أغلب الأيام ، وكان يتناول الشاي بكثرة ، ويدخن سجاير التبغ ، وكان ملما بأغلب العلوم واللغات ، وخصوصا اللغات الفارسية والعربية والتركية والهندية والفرنسية والإنجليزية والروسية ، فقد كان يتقنها إتقانا تاما . وكان يعلم كل قوم بلغتهم .

جمال الدين بالزي الافغاني الذي كان يلبسه في أثناء اقامته في أفغانستان

والواقع أن الإنسان لا يستطيع أن ينعت هذا السيد الجليل بما يليق به من صفات ، لأن هذه الأوراق لا تستوعب فضائله كما قال الشاعر .

(بيت شعر فارسي في الأصل ترجمته) .

المدح وصف وكشف للحجاب
والشمس في غنى عن هذا الباب

ولكن ما لا يدرك كله لا يترك جله ، ولذلك فقد اكتفينا بهذا الموجز عن الإطناب في مدحه ، وإن كان الإطناب أفضل . وإن الحالات التي شوهدت منه وأثرت عنه كثيرة ، يستلزم شرحها وتبيانها كتابا آخر والسلام .

في العشرين من شهر ذي الحجة المحرم من عام ١٣٣٩
كاتبه لطف الله الأسد آبادي

هذه خلاصة لشرح حال السيد جمال الدين الأسد آبادي ، وبيان حسبه ونسبه وموطنه ومولده وشرح حالاته ومراحل حياته ، وهو أستاذ الأولين والآخرين وفخر المسلمين وفيلسوف الشرق العظيم ، وقد كتبه والدي المرحوم ميرزا لطف الله خان في أسلوب بسيط دون تكلف للسجع والقافية ، وكان ممن تتلمذوا عليه ، كما كان من المريدين المفتونين به ، وقد استفاد منه في السفرتين اللتين لازمه فيهما في طهران ، وكان في خدمته طوال المدة التي قضاها فيهما ، فظفر بفوائد جمة .

وقد سمع أغلب هذه المعلومات من لسان السيد نفسه ، واستقى باقيها من المصادر الموثوق فيها .

وهأنذا أقدمها خدمة لتاريخ الإسلام وتلبية لطالبيها الكرام .

وإني أقدمها للسيد محرر مجلة إيرانشهر الغراء حتى تطبع ضمن ما تنشره هذه المجلة بإذن الله .

٢٦ من ذي القعدة من عام ١٣٤٢

صفات الله الأسد آبادي

صفات الله خان بن لطف الله خان